العودة

إن بعض الحوادث في حياة الرجل لتنزل منزلة الآية المحكمة: تنسخ ما كان قبلها، ثم يأتي بعضها كالقنبلة: تخسف الأرض أمامه فلا يرى إلاّ هوةً وغبارها، فإذا تلاحقا لم يدر المرء ما يستدبرُ من أمره ولا ما يستقبل، وإنما هو الحيرة والضلال والرُّعبُ، والتردّي كلما أقدم أو أحجم ... بَلَى، إن علينا أن نصارع الحياة بالقوة، وأن نداورها بالحيلة، حتى نخلص إلى الأرض المطمئنة، ولكن هل يستطيع أحدنا بعد ذلك أن يصل إلى هذه الأرض؟ لولا أن اليأس هو باب الموت، لكان هو — في الحقيقة — إحدى الراحتين ...

كتب

ولنعُدْ ... أصدرت المطابع المصرية في الأسابيع الماضية طائفة كثيرة من الكتب العربية، بعضها لأصحابنا من المعاصرين، وبعضها مما أنقذه المعاصرون من المكتبة العربية المدفونة في خزائن الكتب، فنحن نختار من هذه الكتب ثلاثة يجري الحديث فيها مجرًى واحدًا في الغرض الذي نرمي إليه، وهي كتاب: « التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية » وهو دراسات لكبار المستشرقين مثل: بكر، وجولد تسيهر، ونلينو، ومايرهوف. ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد الرحمن بدوى؛ وكتاب « الرسالة » للإمام المذهب محمد بن إدريس الشافعي. نشره العالم المحدّث الثقة الشيخ أحمد محمد شاكر، وكتاب « الذخيرة » لأبي الحسن علي بن بسام، نشرته كلية الآداب مستعينة بمراجعة الأساتذة محمد عبده عزام، وخليل عساكر، وبخاطره الشافعي؛ وأشرف على عملهم أساتذة الجامعة: أحمد أمين، ومصطفى عبد الرازق، وعبد الحميد البادى، وعبد الوهاب عزام، وطه حسين

وهذه الكتب الثلاثة لا يجمعُها بابٌ واحدٌ من حيث موضوعها، فالأول آراء للمستشرقين في فروع من الحضارة العربية والآراء الإسلامية، ورسالة الشافعي هي أصل علم « أصول الشريعة ». والثالث في تاريخ الأندلس، وشعرائها، وبلغائها، وكتابها. فالذي حملنا على جمعها في باب واحد من كلامنا هو الرأي في المستشرقين، وما يجب علينا أن نتابعهم عليه، وما ينبغي لنا أن نحذره منهم

المستشرقون

فقد قرأت مقدمة كتاب « التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية » — كتبها الأستاذ « بدوى » بحرارة الشباب التي تتضرم في دمه، وجعل يتهدّمُ فيها على التُّراث العربيّ بآراء كالمعاول: تضربُ في الجذع بعد الجذع على غير هُدًى ولا كتاب منير. فلما توغلت في الكتاب رأيت أن آراء المستشرقين — الذين ترجمَ لهم كلامهم — هي التي وضعتْ في يديه هذه الفأسَ ليعمل بها؛ ونحن لا نرى أن مثل ذلك مما يُضر بالتراث الإسلامي بشيء، ولكنا نرى أنه يُضرُّ بأصحابه والعاملين عليه أوّل، لأنه يأكل قوائم في شيء لا يمكن أن ينال منه شيء «ولو كان بعضهم لبعض ظَهِيراً». والمُشْكلة كلُّها هي فتنةُ أكثر الناس بأسماء المستشرقين، وأن ما يكتبون في التاريخ الإسلامي والعربي ينزل من قلوب كثير من شبان الجامعة وغيرهم منزلة الكلام القُدْسي: تحريف معانيه إبطال لقوة « الاستشراق » التي فتنتهم. ونحن — حين قرأنا بعض آرائهم التي ترجمها الأستاذ « بدوى » — وجدناها عملاً صالح المذهب من ناحية مَدْرَجِه، وأما من ناحية التحقيق العلمي، والغاية التي يرمي إليها، فهو عمل غير صالح. فكان هذا الذي عرفناه هو الذي دفعنا أن نخصص هذه الكلمة للكتب الثلاثة المذكورة آنفاً، ولمذاهب المستشرقين في تناول الكتب العربية القديمة بالتحقيق لنشرها، ثم مذاهبهم خاصة فيما يعالجون من تاريخ الفكر الإسلامي أو الحضارة الإسلامية. وليس غرضنا هنا أن نعرض لنقد شيء بعينه من آرائهم، وإنما نريد أن نثبت لهم حقهم الذي وجب لهم بما بذلوه من جُهْد، ونحذر شبّاننا من الافتتان بباطل من باطلهم

وينقسم أمر المستشرقين كما نرى إلى عملين: أحدهما عملهم في الكتب العربية القديمة التي نشروها من بدء توجههم إلى هذا

الغرض ، والآخر ما كتبوه من دراساتهم فى الآثار العربية ، وما أرّخوه من تاريخ الإسـلام ، وتاريخ آرائه ومذاهبه العلمية والفلسفية .

نشر الكتب العربية

فالمستشرقون حين بدأوا فنشروا الكتب العربية القديمة لم يقصّروا فى بذل المال والوقت لاستجلاب الأصول التى يطبعون عنها هذه الكتب ، ثم يتفرغ أحدهم لمقارنة الأصول بعضها ببعض ، وإثبات الاختلاف بين النسخ الكثيرة التى تقع لهم ، وتحرير ذلك بالحرف والنقط والشكل على ما هو عليه فى أصل من الأصول ، وأمانتهم فى إبقاء المحرّف على تحريفه والخطأ على صورته ... إلى غير ذلك من الدقة والأمانة فى إعطاء القارئ صورة كاملة فى نسخة واحدة من الكتاب المطبوع ـ لعدة نسخ مختلفة متباينة من الأصول المخطوطة . حتى إنهم ليثبتون فى « الهامش أو الاستدراك » ما هو خطأ بيّن لا يصح على وجه من الوجوه ، وإنما هو جهلُ ناسخ وإفسادُ كاتب ، ثم لا يعطونك رأياً يرجّحون به لفظاً على لفظ ... وحتى إنهم ليثبتون الخطأ الصرف فى صلب الكتاب ويكون صوابه فى الاستدراك ، وحجّتهم فى ذلك أنهم يعتمدون أقدم النسخ عندهم ، يطبعونها كما هى ، وأما اختلاف سائر النسخ فهو من حق المستدرك وإن كان هو الصواب الذى لا صواب غيره

وهذا — على علّاته — عمل جيد وأمانة صحيحة . ثم جاءتنا هذه المطبوعات فى بلادنا على فترة جهل وإهمال ، وعلى زمن كلُّ أصحاب المال الذين ينشرون الكتب فيه ، إنما هم عامة لا يعنيهم إلا الربح من طبع الكتب حروفاً قد جُمع بعضها إلى بعض على غير نظام ولا تحرير ولا فن ؛ فلما قارن بعضنا هذا بهذا ونحن عرب وهم أعاجم لا يعنيهم من عربيتنا ما يجب أن يعنينا — انبثق بثق الفتنة ، ووجد الناس همة هؤلاء المستشرقين الأعاجم — وحقّ لهم — وجعل جماعةٌ ممن لُبِّس عليهم يدفعون القول بعد القول فى تعظيمهم والمثالاة فيهم بغير الحق ... ثم مضى ذلك وانسحب التبجيل على آرائهم فى الفكر الإسلامى والتاريخ العربى كما انسحب على أعمالهم فى نشر الكتب ... وأين هذا من ذاك ؟

ثم انبثقَ بثقٌ آخر ، فظن بعضُ الغالين أنّ المذهب الذى سلكه المستشرقون فى التصحيح ، هو المذهبُ لا مذهبَ غيره ، وجعلوا يَنْعَون على مَنْ يخالفهم من أصحاب اللسان العربى فى طريقة نشر الكتب العربية . ومع ذلك فهم على الحق فى بعض ما يقولون ، ولكنه ليس كل الحق ؛ فإن المستشرقين لم يذهبوا هذا المذهب ، ولم يقفوا هـذا الموقف من اختلاف النُّسخ ، إلا لعجزهم عن ترجيح بعض الكلام العربىّ على بعض ، وذلك لعِلَل بيّنة : أولها جهلهم بالعربية على التمام ، فإن تمامَ العربية هو السليقة التى لا تكتسب ، كما أن تمام الإنجليزية والفرنسية هو السليقةُ والنشأة والاندماج فى الوسط الإنجليزى أو الفرنسى من بدء المولد والحضانة ؛ والثانى أنه قلّما يوجد فيهم المتخصص فى فقه علم بعينه حتى يكونَ حجّة فيه ، اللّهمَ إلّا أن تكونَ الحجة ـ عندهم ـ فى جمع نصوص كثيرة فى موضوع واحد من كتب شتى ، ولكنهم لا يدّعون أبداً أنهم أصحاب رأى فى البيان والتأويل والترجيح

رسالة الشافعى

ويجب أن نضرب المثل هنا « برسالة الشافعى » التى طبعها العالم الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر ، فهو طبعها عن أصول مخطوطة ومطبوعة ، وأقدمها نسخة منها بخط الربيع بن سليمان تلميذ الشافعى وراوى كتبه ؛ فالأستاذ الشيخ شاكر حجة فى علم الحديث النبوى ، وفقيهٌ متقِنٌ للسنة التى هى أصل من أصول الدين ، فلما تناولَ « الرسالة » يُعدّها للطبع لم يترُك شاردة ولا هائمةً من اللفظ إلا رَدّها إلى مكانها من عربيـة الشافعى وأصوله التى فى كتبه ، وأثبت الاختلاف ورجح بعضه على بعض ، وعمل فى ذلك عمل العقل المفكّر بعد أن ضبط كل اختلاف رآه إلى غير ذلك من أبواب التحرير والضبط . فإذا أنت قرأت الأصل دون التعليق رأيته قد سلم من كل عيب ، وصار بياناً كله ، بعد أن كان فى الطبعة الأولى من « الرسالة » شيئاً متخالفاً يتوقف عليه البصير ، فما ظنك بسائر الناس ممن يقرأ وليس له فى هـذا العلم قديم معرفة أو مشاركة ؟ وأنت إذا قارنت هذه الرسالة بأى كتاب من الكتب التى أتقنها أصحابُها من ثقات المستشرقين ، وجدت الفرق الواضح ، وعرفت فضل العربى على الأعجمى فى نشر الكتب العربية ، إذا هو حمل أصولها على أصول الفقه والدراية والتثبت ، ولم تخدعه فتنة برأى لعله غيره أقوم منه وأجود

وأنا أذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ قد أرسل إليّ فى (إبريل سنة ١٩٣٢) يسألنى عن كلمة وردت فى حديث من مسند أحمد ابن حنبل، ولم أكن قرأتها قبل ذلك، فكتبت إلى الرافعى رحمه الله أسأله عنها وعرضت له ما رأيت من رأى، فخالفنى الرافعى، ثم لم تمض أيام حتى وجدت فى الطبرى ما يوافق بعض رأيى أو يدل عليه، وأبى الرافعى أيضاً. ثم لم ألبث أن وجدت نصاً بعينه على الذى رأيت، وهذه الكلمة هى فى الحديث ... «رجل قد جرد نفسه، قد (أطّنها) على أنه مقتول»، فرأيت أن قراءتها: «أطّنها» والهمزة فيها منقلبة عن الواو فهى «وطّنها» وكذلك وردت فى الطبرى، ولكن أصحاب كتب اللغة لم يثبتوا ذلك فى كتبهم كما أثبتوا «وكَدَّ وأكَدَ»، ووثل وأثل» إلى غير ذلك. فأنت ترى أن الطبع والسليقة ربما هدت إلى ما لا يقع إلا بعض طول التنقيب والبحث والتجميع

الزخيرة

وهذا أيضاً كتاب «الذخيرة» فإن الجهد الذى بذل فى تصحيحه وضبطه على الأصول المخطوطة التى طبع عنها وبيان اختلاف النسخ، قد أوفى على الغاية، وقلّ من المستشرقين من يستطيع أن ينفذ إلى إجادة مثله فى التحرير، ومع ذلك فقد وقع فيه بعض ما كان يمكن تجنبه، لولا أن الأساتذة المصححين قد تهاونوا فى تحطيم أسلوب المستشرقين الأعاجم، فى التوقف الذى لا معنى له عند العربى، ونضيف إلى هذا علة أخرى، هى أنهم ليسوا ممن تخصص لشىء بعينه من تاريخ الأندلس وأدبه، فكذلك بقى بعض الخطأ كما هو، وأثبت على ذلك وليس له أى معنى. وترك مثل ذلك للقارئ مما لا يصح ولا يستحسن، ولنضرب لذلك مثلاً أو مثلين: ففى ص ٨٢ «... دبّروا جميعاً عليه فقتلوه ليلاً ...» وفى نسخة أخرى «بدروا»؛ وكلا الحرفين لا معنى له فى الجملة، والصواب عندى أن يكون «اندَرَأوا عليه ...» أى هجموا عليه واندفعوا، ومن قرأ النص عرف أن هذا هو حق السياق، وكذلك فى ص ١١٠ «وفارس ميدان البيان، وذات صدر الزمان» وفى نسخة «وأذات» وكلاهما ليس له معنى، وهو محرف عن «ودُرّة» أو أى شىء يكون حلياً للصدر ... ونحن لا نتتبع وإنما نقلب بعض أوراقه الآن على غير ترتيب، ومع ذلك فهو أجود بكثير من أغلب كتب المستشرقين

هذا ...، وليس كل المستشرقين ممن يصح الاعتماد عليهم فى كل شىء، فقد طبعوا كثيراً من الكتب ...، وأقل كتاب وأردأه مما يطبع فى مصر هو خير من مثل هذه الكتب. فلو أخذت مثلاً «كتاب الزُّهرة» لابن داود الظاهرى، الذى طبعه الأستاذ «لويس نيكل» بمساعدة الأخ «ابراهيم طوقان[1]»، لوجدت أكثره خطأ، بعد الذى بذله الأستاذ طوقان فى الاستدراك عليه ... ولو شئنا أن نضرب المثال بعد المثال على ذلك لضاق المكان عن إتمام ذلك

مباحثهم

أما مباحث المستشرقين فهذه هى موضوع الإشكال كله، والمستشرقون ـ كما لا يشك أحد ـ ثلاث فئات: فئة المتعصبين الذين تعلموا العربية فى الكنائس لخدمة التبشير، وهم الأصل، لأن الاستشراق فى أوله كان قد نشأ هنالك بين رجال الدين ...؛ وفئة المستشرقين الذى يخدمون السياسة الاستعمارية فى الشرق العربى، وفئة العلماء الذين يظن أنهم تجرّدوا من الغرضين جميعاً ... فأما الفئة الأولى والثانية فما نظن أكثر أقوالهم فى المباحث الإسلامية إلا جانحاً إلى غرض أو مركوساً بقوله إليه، وهم أكثرية المستشرقين، ولا نظن أن كلام هؤلاء مما يمكن أن يعتمده أحدٌ إلا أن يكون مفتوناً جاهلاً. وأما الفئة الثالثة، فهى أيضاً موضع الإشكال؛ فمن غير الممكن فيما نظن أن يتجرد هؤلاء عن الغرض الخفى الذى يدب من وراء الكلام؛ هذا على أنهم كما قدمنا ليسوا أصحاب سليقة فى فهم النصوص العربية على التحرى لموضوعها، وتمام الفقه لمعانيها التى يتعاطونها؛ وإذن فمن واجب قارئ كلامهم أن يقف عند آرائهم موقف الناقد الذى لا يقبل إلا ما تقبله الطبيعة الفطرية للغة فى المعانى التى يستخرجونها من الكلام. ومع ذلك أيضاً فمن عيوب هذه الفئة أنهم ربما استخرجوا قولاً ضعيفاً فاسداً ليس بشىء فى تاريخ الإسلام والعربية، ثم يكتبون وقد اتخذوا هذا القول أصلاً ثم يجرون عليه سائر الأقوال ويؤولونها إليه، ثم يحشدون لذلك شبهاً كثيرة مما يقع فى تاريخ مهمل

(١) ترجم الأستاذ بدوى هذا الاسم بجعله «توقان» ١١ س ١٠ من كتابه.